The cloud in Al-Sayyab's poetry and its significance

Dr. Fakher Mia[*]
Dr. Mohammed Maroushia[**]
Yasser Fadel[***]

(Received 27 / 1 / 2023. Accepted 20 / 3 / 2023)

□ ABSTRACT □

The symbol of the cloud is associated with the poets with the symbol of rain and what it carries of goodness, giving and growth; However, sometimes it has been associated with misery and misery, as it represented birth, revolution, and purification with the rain that it carries, washing and purifying what falls on it.
The reader will notice that many of the expressions used by the early Arabs to describe clouds and rain are still used with the same meanings and connotations to this day.
Poets of all ages excelled in depicting natural scenes, including the description of the cloud and rain, which they carried many connotations that differed from one poet to another. Part of it used, while the other part of it became extinct.
As for Al-Sayyab, the symbol of the cloud was abundant in his poetry, accompanied by the symbol of rain. Which we mentioned pains that filled the poet's chest and made him sad and tired, so the symbol of the cloud came with many connotations different from what the poets who preceded him mentioned at one time, and similar to what they mentioned at another time.

key words: Water - rain – cloud - Alsayyab

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

[*]**Professor - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
****Professor - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
*****PhD - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria.**
yasserkamelfadel@tishreen.edu.sy

الغيمة في شعر السياب ودلالتها

د. فاخر مياً*

د. محمد مروشية**

ياسر فاضل***

(تاريخ الإيداع 27 / 1 / 2023. قبل للنشر في 20 / 3 / 2023)

□ ملخّص □

اقترن رمز الغيمة عند الشعراء برمز المطر وما يحمله من خيرٍ وعطاء ونماء؛ إلا أنّها في بعض الأحيان اقترنت بالبؤس والشقاء، كما مثلت الميلاد والثورة والتطهير بما تحمله من أمطار تغسل ما تسقط عليه وتطهره، وسيبين البحث هذه الأوجه المختلفة للغيمة عند عدد الشعراء، مركّزاً الحديث على رمزية الغيمة بأبعادها المختلفة عند السياب.

وسيجد القارئ أن كثيراً من التعابير التي يستخدمها العرب الأوائل في وصف السحاب والمطر مازالت تستعمل بنفس معانيها ودلالاتها إلى اليوم، فقد أبدع الشعراء بمختلف العصور في تصوير المشاهد الطبيعية، ومنها وصف الغيمة والمطر، اللذين حملاهما دلالات كثيرة اختلفت من شاعر إلى آخر، فمنهم من اعتبرها رمز الخير والعطاء، ومنهم من اعتبرها رمز التطهير والثورة وغسل الذنوب، فراحوا يضفون عليهما الصفات ويعددون أسماءهما المختلفة التي بقي جزء منها مستخدماً، في حين انقرض الجزء الآخر منها.

أمّا السياب فقد كثر في شعره رمز الغيمة مصحوباً برمز المطر؛ اللذين قُرِنا بآلام اعتملت صدر الشاعر وأحزنته وأتعبته في بحثه عن الخلاص، فجاء رمز الغيمة ذا دلالاتٍ عديدة مختلفةٍ عما ذكره الشعراء الذين سبقوه حيناً، ومشابهةٍ لما ذكروه حيناً آخر.

الكلمات المفتاحية: الماء – المطر – الغيمة – السياب

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **أستاذ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.**

** **أستاذ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.**

*** **طالب دكتوراه – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.yasserkamelfadel@tishreen.edu.sy**

مقدّمة:

إنّ وصف السحاب والمطر وآثارهما من الفنون التي برع فيها أبناء الصحراء منذ القدم، وهذه البراعة نتيجة لمعيشتهم التي تعتمد على الترحال طلباً للماء والكلأ ولأن نمط هذه المعيشة مرتبط بالسماء ارتباطاً مباشراً فهم يرقبونها ليلاً ونهاراً فما تنشأ سحابة إلا تحت أبصارهم؛ يخيلون برقها، وينصتون لرعدها، ويشاهدون تأثير الرياح في إلقاحها وسوقها، ويتابعون حركتها واتجاهها، فخبروا بتجاربهم تشكيلات السحاب المختلفة، وتأثيراتها، وقوة أمطارها، وميزوا كل منها بأسماء خاصة، كما أن نزول المطر يعتبر مفتاح حياة الأرض بالنبات، وبحياة النبات يكون الخير في الزرع والمرعى وما يجود بالخير للناس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. (الأنبياء: 30)

ومما قيل في فعل السحاب والمطر «يقال إذا أتت السماء بالمطر اليسير الخفيف: حفشت، وحشكت، فإذا استمرّ قطرها، قيل: هطلت، وهتنت، فإذا صبّت الماء، قيل: همعت، وهضبت، فإذا ارتفع صوت وقعها، قيل: انهلّت، واستهلّت»[1].

أهمّية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من دراسة الرموز التي حملتها رمزية الغيمة عند السياب؛ لفهم دلالاتها، ومعرفة مدى انعكاس نفسية السياب عليها، فمرة كانت تعني الثورة والأمل والميلاد الجديد، ومرة نراها تدمى من الآلام التي صحبته في واقعه، ومرة تراها غريبة تائهة لا تعرف الاستقرار تعكس حالته المضطربة، ثم نراها بائسة سيطر الألم عليها وتملك الرعب فيها، ثم تصبح أحياناً عاشقة هائمة في عالم الحب والحنان، وكل ذلك إنّما له علاقته بالشاعر وما يحمله في قلبه من ألم وحزن وغربة وحنين وشوق، مما جعل هذه الغيمة رمزاً خصباً تفاعلت فيها المشاعر المختلفة.

منهجيّة البحث:

اتّبع البحث المنهج الوصفي؛ فبحث في أشعار العرب وما تندرج تحته من دلالات وصورٍ للغيم، واصفاً ما ذكروه، ثم الغوص في كتابات السياب للكشف عما حملته الغيمة من دلالات كثيرة في شعره.

دلالة الغيمة:

ذكر كثير من أسماء الغيم في لغتنا العربية منها ما بقي مستعملاً ومنها ما أُهمل، ومن هذه الأسماء السحاب والغمام، والعارض، والمكفهر، وسواها، وقد قال النويري في نهاية الأرب نقلاً عن الثعالبي في فقة اللغة: «أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نشء، فإذا انسحب في الهواء، فهو السحاب، فإذا تغيرت وتغممت له السماء، فهو الغمام، فإذا كان غيم ينشأ في عرض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العقر، فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارض، فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العرّاص. فإذا كانت السحابة قطعاً صغاراً متدانياً بعضها من بعض، فهي النّمرة، فإذا كانت متفرّقة، فهي القزع...، فإذا كانت قطعاً كأنها قطع الجبال، فهي قلع، وكنهور (واحدتها كنهورة)، فإذا كانت قطعاً رقاقاً، فهي الطّخارير (واحدتها طخرور)... فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضاً، فهو المكفهّر، فإذا ارتفع ولم ينبسط، فهو النّشاص، فإذا تقطع في أقطار السماء وتلبّد بعضه فوق بعض، فهو القرد.»[2].

[1] . شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، مصر . القاهرة، 2002م، ج1، ص74.

[2] . شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج1، ص72.

وربما كانت الغيمة السوداء المثقلة بالماء من الصور المحببة إلى عبيد بن الأبرص أو أوس بن حجر؛ لأنها تبعث الحياة والأمل في نفس الشاعر، فيهش لها، ويتوثب فرحاً بها، ويتطاول راغباً في مصافحتها، وفي الإمساك بذيلها المتدلي»[3]،

فالشعراء كانوا إذا عبرت فوقهم غيمة يتوسمون فيها الغيث، ويبشر بعضهم بعضهم الآخر، فقد رسم الشاعر أوس بن حجر صورة جميلة للسحاب وهو يتحول من قطن مندوف إلى دمع مذروف، و«لك أن تتمثل الشاعر قابعاً في كسر خيمة، والسحابة الكثيفة أول المخاض، والبرق يضيئها بين الحين والحين بخطوط تشق بطنها المغلق، وذيول السحابة المتدلية في السماء تكا تلامس الأرض»[4].

ولم يهدأ الرعد بل علا صوته في أعلى السحابة فاهتزت، ولم تعد تستطيع حمل الماء الثقيل، فسال، وكان البرق يزيد اشتعالاً، «وكلما اشتعل خُيِّل إلى الشاعر أن السحابة على هيئة أستار بيض مسدلة على الأفق، وخُيِّل إليه أنه يرى نوقاً ضخمة...، وحينما يتقصف الرعد تهدر جنبات السحب بهزيم رهيب مهيب»[5].

والشعراء في تصويرهم المطر قد اتخذوه وسيلة لاجتياز واقع الإنسان والتحليق فيما وراء الواقع، فهو يتجاوزه إلى ما يجب أن يكون، وبذلك يطمح إلى النماذج العليا من صور الحياة.

صورة الغيمة عند السياب:

أَريجُ تَموزَ الذي يفوح من عمق الأساطيْر البابلية، ونسيجٌ من الحرمان الأبدي، وعمقٌ عبثيٌّ ينذرُ بسيلٍ من الكوارث لمآسٍ لا تنفكُّ تتابع كرذاذ المطر، وألمٌ اتَخذ سمْتاً لِذَاتٍ ذاقتِ الحرمان منذ أن تفتَّح برعمها على الدنيا، وحربٌ نفسيَّةٌ ضروسٌ من الذات والآخرين، هذا هو سديْم الشاعر العراقي الكبيْر بدر شاكر السيَّاب الذي يعتبر أحد روَّاد الشعر العربِي، والذي دار في فلكه من بدء مولده حتَّى احتواه اللحد.

وقد اتَّسم شعر السياب في المرحلة الأولى بالرومانسية وبدا تأثره بِجيل علي محمود طه من خلال تشكيل القصيد العمودي وتنويع القافية، ومنذ عام 1947 م، انساق وراء السياسة وبدا ذلك واضحاً في ديوانه (أعاصيْر)، الذي حافظ فيه السياب على الشكل العمودي وبدأ فيه اهتمامه بقضايا الإنسانية، وقد تواصل هذا النَّفَس مع مزجه بثقافته الإنْجليزية متأثراً بإليوت في ديوانه (أزهار وأساطيْر)، وظهرت محاولاته الأولَى في الشعر الحر وقد ذهبت فئةٌ من النقاد إلَى أنَّ قصيدته «هل كان حباً؟» هي أولُ نصٍّ في الشكل الجديد للشعر العربي وما زال الجدل قائماً حتَّى الآن في خصوص الريادة بينه وبيْنَ الشاعرة نازك الملائكة.

من أولِ الخمسينيات كرَّس السياب كل شعره لهذا النمط الجديد واتَّخذ المطولات الشعرية وسيلةً للكتابة، ومع بداية الستينات نشر السياب ديوانه «أنشودة المطر» الذي انتزع به الاعتراف نِهائياً للشعر الحر من القرَّاء، وصارَ هو الشكل الأكثر ملاءَمةً لشعراء الأجيال الصاعدة، وأخذ السياب موقع الريادة بفضل تدفقه الشعري وتَمكنه من جميع الأغراض وكذلك للنَّفَس الأسطوري الذي أدخله على الشعر العربِي بإيقاظ أساطيْر بابل واليونان القديْمة، كما صنع رموزاً خاصة بشعره مثل: المطر، وتَموز، وعشتار، وجيكور قريته التِي خلَّدها.

---

[3] **. غازي طليمات، وعرفان الأشقر،الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، ط1، دار الإرشاد، سورية . حمص، د. ت ص67.**

[4] **. غازي طليمات، وعرفان الأشقر، ، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، ص 450.**

[5] **. المرجع السابق، ص451.**

تَخلَّلت سنوات الشهرة صراعات السياب مع المرض، وبدأت ملامح جديدة تظهر في شعره، وتغيَّرت رموزه من تَموز والمطر في «أنشودة المطر»، إلَى السراب والمراثي في مجموعته «المعبد الغريق»، ولاحقاً توغل السياب في ذكرياته الخاصة وصار شعره ملتصقاً بسيْرته الذاتية في «منزل الأفنان» و«شناشيل ابنة الجلبِي»، وقدْ سافرَ السياب في هذه الفترة الأخيْرة من حياته كثيراً للتداوي، وكذلك لحضور بعض المؤتمرات الأدبية.

لقد كوَّن السيَّاب لنفسه طريقاً شعرياً، وقدِ امتلأت قصائده بكثيْرٍ من الصور والأفكار الجديدة، والتِي تعبِّر عن رؤيته لبلوغ هدفٍ اختطَّه لنفسه منذ بدأ محاولات التجديد في شعره، وحاول جهده توصيلها للقارئ، وقد امتزجت تَجربته الشعرية بألميْن:

1. ألم الوطن الممزَّق تحت نير الاستعمار: وما ولَّده ذلك من غربةٍ ونزوحٍ خارجٍ عن إرادتهِ.

2. ألم الروح المعذبة الشاردة في عالم هو أدنَى للموت: وما في هذا العالم من شفافيةٍ ترقى إلى اللامتناهي.

وإذا تتبعنا مسار تطور تجربة السياب الشعرية فإننا سنجدها تتشكل من ثلاث مراحل أساسية . سواء على مستوى الرؤية الشعرية أم البعد الفني المجسد لهذه الرؤية . وهي:

«مرحلة البدايات الرومانسية، ثم مرحلة الانتقال إلى الواقعية والانشغال بهموم الإنسان في ما يتعين به وجوده زماناً ومكاناً، مع ملاحظة تطور هذه الرؤية في سياقات شعرية جديدة، كانت الأسطورة التموزية عمادها الرمزي الأكبر، ثم تأتي مرحلة العودة إلى جيكور، التي ستتداخل مع مرحلة المرض، لتشكل بعداً آخر في تجربة الشاعر»[6].

وقد تمثلت مرحلته الأولى في عملين شعريين هما: أزهار ذابلة 1947 م، وأساطير 1950 م وقد مثل من خلالهما جانباً من الامتداد الرؤيوي الذي منه تشكلت ثقافته الشعرية.

وأما المرحلة الثانية فقد مثلت فيها قصائده تجارب حية لواقع انشغل بهمومه وقضاياه، ومنها قصائده الثلاث: الأسلحة والأطفال، وحفار القبور، والمومس العمياء، وقد وجد فيها بداية لنضج شخصيته الشعرية[7].

المرحلة الثالثة وهي مرحلة المرض التي امتزجت بقصائده الجيكورية، التي استعاد بها الماضي بوقائعه وزمانه ليقدم من هذه الاستعادة إحاطة بالعلاقة بين الذات والواقع.

إنّ ما بيْن أحضان الألميْن الذين أصابا السياب . ألم الوطن الممزَّق تحت نير الاستعمار، وألم الروح المعذبة الشاردة في عالم هو أدنَى للموت . قضى عمره باحثاً عن مستقرٍّ يأويه فيتيهُ بينهما، لذا أفرز الشاعر شعراً نابضاً بالوجدان، وفاتِحاً لأقرانه الطريق ليجدِّدوا ويبدعوا في هذا الطريق الممتدِّ طويلاً، ومن هنا كنَّا نراهُ حيْنَ ينطلقُ ليتكلَّمَ عن رمز الغيمةِ والمطرِ، يَمزجُ ذلك بألميْهِ سابِقيْ الذكرِ.

وتتعدَّدُ مستويات هذا الرمز، ونُحاوِلُ الإلمام بِهذهِ المستويات:

1. الغيمة/ الثورة والميلاد:

نرى السيَّاب يجعل الغيمة صورةً لِما يَهيْجُ في أعماق الثائرينَ الغاضبيْنَ، ولتكونَ في مطرِها نِهايةً لعهد الخنوع والاستسلام، وبدايةً لعهد التغييْر نَحو الأفضل، فها هوَ في قصيدته الشهيْرة (أنشودة المطر) يَمزجُ الغيم بالثورة والميلاد والأمل فيقول:

---

[6] . **ماجد صالح السامرائي، بدر شاكر السياب شاعر عصر التجديد الشعري، ط1، لبنان . بيروت، 2012 م، ص9.**

[7] . **المرجع السابق، ص10.**

كأنَّ أقواسَ السحابِ تشربُ الغيوم..
وقطرةً فقطرةً تذوبُ في المطر
وكركر الأطفال في عرائش الكروم
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر[8]

حيثُ يستحيلُ الغيمُ عبْر صورة التشبيه (كأنَّ أقواس) والاستعارة (تشرب الغيوم) إلى عامل خصبٍ ونَماء، إلَى تفجر الثورة تدريجياً (قطرةً فقطرةً)، وإلَى انتصار الثورة التِي ستجعل قوى الاستعمار (تذوب) في المطر، ليكون الغيم مفجِّر ثورة المقهورين في وجه من يسحقهم ويسلبهم حقهم، وأملاً لهم في غدٍ مشرقٍ لأنَّ صورة الغيم وما يولِّده من مطر دلالة على الخصب والنماء والخيْر والعطاء.

وإنك لتتساءل عن طبيعة الصلة التي توثق ما لحق بما سبق من دون أن تفصح وتنجح، فكأن الشاعر أسقط مقاطع أو أبياتاً أو أنه ينقاد للصورة الشعرية ذات الجمال الخاص، معبّراً عن قلقه وخوفه وإحساسه بروعة هطول المطر، وهو يتحدث فيه عن الجوع والحزن، إنها مأساته الوجودية الحقيقية الوحيدة (الجوع)، «إنها واحدة ونموذجية ورمز للعلاقة الشعرية بين الذات والموضوع وسرعان ما تتمزق هذه العلاقة عندما يتحدث.. عن رؤياه الفوقية السادية ويتساقط المطر في حقول العراق الكئيبة الصامتة»[9]؛ فيعم الخير والعطاء حقول العراق، فهو يرى أن كل شيء مرتبط بالغيوم، الذي يحمل الرطوبة والندى، الرضى والسعادة، وقد كان واضحاً بالنسبة إلى السياب موضوع العبادة الدينية للمطر من قبل سكان الريف العراقي، وطالما انتظر أهل العراق هذا المطر، وطالما صلوا لله حتى يسقيهم القطرة منه، وطالما عانى أبناء العراق فقدانها، وهم جياع يرتجفون في الظلمة يبحثون عن يد تطعمهم وتغطيهم[10].

وتتكرر صورة الغيوم من جديد في الأنشودة رمزاً متكرراً للثورة والميلاد:

تثاءب المساءُ والغيومُ ما تزال
تسحّ ما تسحّ من دموعها الثقال[11]

يرى الشاعر دخول الليل في صورة فنية بديعةٍ على شكل رجلٍ متثاءبٍ، وكأنَّه يدعو شعبه للثورة ونفض الرماد والاستيقاظ من غفلته في وجه الاستعمار، وما زالت الغيوم تنزل المطر الذي أثقل كاهله الشعب الذي يعانِي، ولكنَّها النهاية، نِهاية الاستعمار وميلاد الشعب ثانيةً، فقد كانت قطرة المطر التي حملتها الغيوم تعويذة يحملها في حياته وشعره، إنها الأمل، إنها مبعث الحياة الجديدة، «ويكبر الأمل في قصيدة أنشودة المطر ويرى دماء العبيد ودموع الجياع، تمتزج بقطرة المطر، فتولّد حياة جديدة خيّرة معطاء»[12]:

في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر

---

[8] . بدر شاكر السياب ، الديوان ،مج1، بيروت، دار العودة ،ط3، 1971، ص155.

[9] . مخائيل إمطانيوس، دراسات في الشعر العربي الحديث (وفق المنهج النقدي الديالكتيكي)، المكتبة العصرية، لبنان . بيروت، ط1، 1986، ص29.

[10] . نبيلة الرزاز اللجمي، بدر شاكر السياب حياته وشعره، منشورات مكتبة أطلس، لم تذكر بلد النشر، 2000 م، ص151.

[11] . المرجع السابق، ص156.

[12] . المرجع السابق ، ص152.

وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي انتظار مبسم جديد
أو حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفنتي واهب الحياة
مطر
مطر
مطر
سيعشب العراق بالمطر

وصورة الثورة في الغيمةِ يستدعيها الشاعر في قصيدتِهِ (النبوءة الزائفة):

خيوطٌ ضبابيَّةٌ قاتِمة
نِهايتها في المدى عائمة
وأعراقها السود في ناظري.
ودارتْ خيوطٌ ولُفَّتْ سواها
فعانقهنَ أفْقا
ووسوسْنَ غيماً على الريح مُلقى
تجمّعَ من كل صوب، ورعداً وبرقا:
لقد أغضب الآثمون الإلها
وحقّ العقاب![13]

فالثورةُ بدأتْ من خيوطٍ ضبابِيَّةٍ قاتِمةٍ، ثُمَّ تَجمعت خيوطها تدريجياً لتستحيلَ إلَى غيمٍ (الثورة) يوسوسُ بِصمتٍ، ولكن ما يلبثُ الصوتُ يعلو ليضاهي الرعدَ في صوتِهِ، وتتفجَّرُ الثورةُ التِي تَجمَّعتْ من كلِّ مكانٍ، فالآثِمونَ نالوا عن جدارةٍ غضب الإله، واستحقوا اللعنةَ والعقاب، فهذه صورة الغضب من المعتديْنَ:

وأحسستُ أن الغيوم انتظارْ
وأنّ انتظاراً يشدّ الترابْ
وأصدى.. بماذا؟
بصوت انفجار.[14]

فلم تعدِ الغيومُ مجرَّدَ ماءٍ يَنهمرُ بل هو الانتظارُ بتفجر الماء، انتظارٌ للتراب الذي يلهثُ عطشاً للمطر، وصداها يتَردَّدُ ثورةً ستنفجرُ في وجوه الباغيْنَ من الاستعمار وأذيالِه.

[13]. نبيلة الرزاز اللجمي، ، بدر شاكر السياب حياته وشعره، ص165.
[14] . المرجع السابق ، ص165.

2. الغيمة الغريبةُ:

والسيَّاب حيْن يتعلق برمز الغيمة يَجعل قصيدةً كاملةً لَها بعنوان (الغيمة الغريبة)، وفي هذه القصيدة النابضة بالألَم يميل على الواقع الاجتماعي الذي آلم المومس الحقيْرة . على حد تعبيْر السياب . والتِي وجدت نفسها مدفوعةً إلى الرذيلة رغماً عنها، فنراهُ يقولُ:

فألتقي دمعي، كغيمة تعيد نفسها للبحر.
أتعلمُ السحابةُ المرعدةُ المبْرقةُ المجلجلةُ
بأنَّ ماءها سيستحيلُ غيمةً إليها مقبلةً،
تبذله في الفجرِ
وتلتقي به قبيل العصرِ؟[15]

هنا تقاطعٌ ما بيْنَ غرابة الغيمة وبؤس موقف المومس، إذ نَجدهُ يتساءلُ عن مقدار علم الغيمة إلَى مصيْرها الذي سيكونُ مطراً ثُمَّ يعودُ غيْمةً أخرى من جديد، وهنا براعة في نقد الشاعر لمجتمعه، فهل كانت المومس تعلمُ أنَّ موقفها سيكونُ كالغيمةِ لا تدري ماذا يَحلُّ بِها؟ وهل قُدِّرَ للمومس أن تعيد دورة حياتِها فهل ستعودُ لمهنتِها؟!

فهو يعيد في هذه القصيدة النظر في علاقته بالمومسات من وجهة نظر إنسانية عفوية، خلافاً لما كان يحمله من نظرة وعظية اجتماعية في قصائده السابقة (المومس العمياء)، فتمثل هذه القصيدة نوعاً من المراجعة النفسية الذاتية والإشفاق على النفس.

يقول السياب في قصيدته:

لو كان ما تحسه الحبيبة
الألم، الدوار... لا الخواء
ما كنت مثل غيمةٍ غريبةٍ
ترعد حتَّى تشعل الهواءَ
رعداً
وتأبَى الأرض أن تَجيبه![16]

ولعلنا نلمحُ هنا في صوت الرعدِ . وهو قويٌّ مُجلجلٌ . ارتفاع صوت الشاعر في وجه الظروف الاجتماعية القاسية التِي حدتْ بالمومس ودفعتْها لتفعل ما فعلته، كالغيمة الغريبة تُزجيها الرياح لتشعل الهواءَ رعداً، وينتظر الشاعر الجواب ولكنَّ الأرض لا تُجيبُ الرعدَ، وكذا المجتمعُ لا يُجيبه عن فحوى سؤاله:

أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجلة
بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبلة
تبذله في الفجر
وتلتقي به قبيل العصر
أريد أن أضمّ أن أقبّل

[15] . نبيلة الرزاز اللجمي، ، بدر شاكر السياب حياته وشعره ، ص143.
[16]. المرجع السابق ، بدر شاكر السياب حياته وشعره، ص144.

الدم الذي ينبض في الشفاه
كأنما القلب الذي يقبّل
الجسد الموات لا يحس شهقة الإله
تغور كالمدية حين تقتل
فتبعث الحياة القتيل[17]

3. الغيمة/ البؤسُ:

وحيْنَ نَمضي مع السياب في رحلة الألم، وصراعه المرير مع سقمه، يتحولُ هذا الرمز إلَى البؤس والحزن، فنشعرُ حيْنَ نقرأ قصيدته (وداع) بِهذا النَّفَسِ الحزين يملأ مناخ النصّ، ويوظِّفُ الشاعرُ صورة التشبيه للغيمة بالنسيان والبؤس، فيقول:

ستنسيْن هذا الجبيْنَ الحزين
كما انْحلتِ الغيمةُ الشاردةُ
وغابتْ، كحلمٍ؛ وراء التلال
بعيداً... سوى قطرةٍ جامدة
ستنثرها الريحُ عما قليل
وتشربُها التربةُ الباردة.[18]

الجمود هنا يَعنِي الموتُ، والموتُ مضاد للخصبِ وميلاد للعذاب والألم، وانتهاجٌ لسيْرورة البؤس التِي تنبثقُ مما وراء الكلمات، فنشعرُ معه بألم النسيان وما يتركهُ من بؤسٍ دفيْنٍ في أعماقهِ، ويشبِّهُ ذاته التِي ستغادر هذا العالَمَ بالغيمةِ الشاردةِ، والشُّرودُ خروجٌ عن مسار القطيع، فهذه الغيمة فارقتْ أخواتِها، كما سيفارقُ الشاعر من حوله ويغرقُ في عالَم النسيان، وتنساهُ حبيبته كما تنسَى التربةُ الباردةُ طعم قطرات المطر من الغيمة، وبالتالِي يكونُ البَرْدُ صرخةً من أعماق الشعر ليأتيه الدفـءُ الذي يَنسلُّ منهُ تدريْجياً، وهذه صورة مغرقةٌ في اليأسِ والبؤسِ.

وممّا يؤكد صورة البؤس واليأس قول الشاعر من القصيدة ذاتِها:

غداً.. حيْنَ يبلى وراءَ الزجاج
كتابُ عليه اسمي الذابلُ
وتنفضُ كفَّاك عنه الغبار
ويَخلو بك المخدع القاحلُ
سيلقاكِ وجهي خلال السطور
كما يسطع الكوكب الآفل.[19]

وفي قصيدته (مدينة بلا مطر) نرى مأساة التوجس والتوقع ماثلة في القصيدة، تصحبها فاجعة الرزق المعسور وانحباس السماء وعقم الأرض:

---

[17] **. نبيلة الرزاز اللجمي، ، بدر شاكر السياب حياته وشعره ، ص144.**
[18] **. المرجع السابق، ص404.**
[19] **المرجع السابق، ص405.**

سحائب مبرقات، مرعدات دون إمطار
قضينا العام بعد العام، بعد العام، نرعاها
وريح تشبه الإعصار، لا مرّت كإعصار
ولا هدأت، تنام وتستفيق ونحن نخشاها
فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمهْ
عيونكم الحجار نحسُّها تنداح في العتمهْ
لترجمنا بلا نقمهْ
تدور كأنهن رحى بطيئات تلوك جفوننا
حتى ألفناها
عيونكم الحجار كأنها لبنات أسوار
بأيدينا بما لا تفعل الأيدي بنيناها[20]

فالشاعر يتوقع أن يصلح أمر بلده وينهمر الخير على أبنائه، وهو في كرهه للمدينة وفسق الحضارة ونتن جيفتها لا يرجو أي خير من الصناعة أو التجارة، بل إنه يمقتها لأنها تحول قرية الطهارة الآكلة خبزها بعرق جبينها إلى مبغى كبير، إن المطر كان ينهمر أبداً فيه الغلال تنمو وتتكاثر، إلا أن ذوي الأطماع والطغاة يأكلونه أو يخزنونه في خزائنهم.

فالسياب قد «غنى المأساة العربية كلل، وكانت تطوراته الموقفية والشعرية انعكاساً لتطورات الواقع العربي وتصويراً صادقاً للصراع الحاد بين متطلبات الواقع الحضارية ورؤياه المستقبلية وبين الواقع ذاته كتناقض وديناميكية وصيرورة، واستطاع السياب من خلال مجموعاته الشعرية المتتالية أن يرصد تمزقات الواقع العربي وصراع المفاهيم القاطنة في الوجدان العربي، وأن يكون الأغنية المأساوية الشفافة التي تكشف معاناة الجيل وسوداوية المرحلة وأحلام المستقبل»[21].

4. الغيمة: العشقُ:

وهنا صورةٌ مشرقةٌ في هوى الشاعر، « ففي قصيدته (أهواء) نشعرُ بذات الشاعر العائِمة في عالَم الحب، حيثُ الحبيبةُ تنتظره مثل (بنلوب) في الأساطيْر الإغريقية والتِي تنتظر عودة زوجها من رحلته الطويلة بعد حرب طروادة، فيقولُ:

رآها تغنِّي وراءَ القطيع
كبَنلوبَ تستمهلُ العاشقيْن»[22]

وهذه الصورةُ الرمزيةُ التِي يُولعُ بِها السياب كثيْراً في شعره، تَجعلهُ يرمزُ بالغيمةِ إلَى الحبِّ الذي يَملأ أعماقه، وهو الحب الذي افتقده منذ طفولته حيْن فقد الأم، فيستحيل رمز الغيمةِ والماء إلَى خصبٍ في العاطفةِ:

[20] **بدر شاكر السياب ، الديوان ،مج1، بيروت، دار العودة ،ط3، 1971، ص77-478 .**
[21] **. مخائيل امطانيوس، دراسات في الشعر العربي الحديث (وفق المنهج النقدي الديالكتيكي)، ص21.**
[22] **. المرجع السابق، ص54.**

فما كان إلا وميضٌ أضاءَ
ذُرى النخل، وانْحلّ غيمٌ وذاب
ويا سدرةَ الغاب كيف استجارا
بأفنانك الناطفات المياه
رآها وقد بلّ من ثَوْبِها
حياً زخّ، فاستقبلَتها يداه
على الجذع يستدفئان الصدور[23]

وهي صورةٌ إبداعيَّةٌ، وشاعريَّةٌ تتواشجُ مع الدفق العاطفي في أعماقِهِ، فالغيمةُ تنحلُّ بعد الوميض الذي أفرزهُ الرعدُ، ولكنَّ الغيمةَ صارتْ ماءً دالاً على الحب الدفيْن، فالماء بلَّلَ ثوبَ المحبوبةِ حياةٌ تنمو وتستدعي الدفءَ.

وتتكرَّرُ صورة الغيمة في رداء الحب عند الشاعر في قصيدته (الشاعر الرجيم)، وهو يتذكَّرُ مغامرات الحب في عهد الشباب، لتصبحَ الغيمةُ رديفاً للنورِ، والنور لمحةٌ من الوجْدِ الذي ينطوي بيْنَ ضلوع الشاعر، فيقولُ:

ويرفع الشَّرقُ أمام عينيك الستورْ،
توشك أن تعانقَ الجَمال عند سُدَّة الإله،
تكاد أن تراه
يهفُّ وسطَ غيْمةٍ من عَبَقٍ ونور.[24]

إنّ ملامح الجمالِ الذي يتراءى له في المحبوبة التي تتوارى خلف الستور الشفَّافةِ، تَقترنُ بصورة الغيمة التِي تخفي العبق والنور (الرعد)، وهذا رمزٌ يستدعي في ذهن الشاعر أنوار العالَمِ الذي يَهيْمُ فيهِ العشَّاقُ.

خاتمة:

بعد البحث في رمزية الغيمة ودلالاتها في شعر السياب توصّل البحث إلى عدد من النتائج نجملها فيما يأتي :

1- اتَّخذَ السيّاب من الغيمةِ ودلالاتِها رموزاً خصبةً تتفاعلُ فيها الثورةُ والغضبُ والحزنُ والحبُّ ونقدُ المجتمعِ الذي يظلمُ الناسَ ثُمَّ يحاسبُهم. 2- إنّ الغيمُ وما يولِّدهُ من مطرٍ يظلّ رمزاً واسعاً قادراً على حمل هواجس النفس الإنسانية . 3- يتخذ الشاعر من موطنه العراق حبيبة يتغنَّى بِها ويتمنَّى أن يعمَّ وطنه الخيْرُ والخصبُ والنماءُ، منطلقاً من همِّهِ الفرديِّ الخاصِّ إلَى عرضِ بعض الهموم الاجتماعية مثل: الفقر والجوع على الرغم من وجود الخيْر الكثيْر في بلده.

[23] . بدر شاكر السياب ، الديوان ،مج1، بيروت، دار العودة ، 1971، ص487.
[24] . المصدر السابق ، ص489 .

المصادر والمراجع:

(القرآن الكريم) .

– أميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي (سير ودراسات)، ط2، تر. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر . القاهرة، د.ت.

– بدر شاكر السياب ، الديوان، مج1، بيروت، دار العودة ،ط1971،3 م.

– شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، مصر . القاهرة، 2002م.

– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط1، دار المعارف، مصر . القاهرة، 1987 م.

– عُبيد بن الأبرص، الديوان، شرح أشرف أحمد عدرة، ط1، دار الكتاب العربي، لبنان . بيروت، 1994 – غازي طليمات، وعرفان الأشقر،الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، ط1، دار الإرشاد، سورية . حمص، د.ت.

– امرؤ القيس، الديوان، تح. محمد علي بيضون، ط5، دار الكتب العلمية، لبنان . بيروت، 2004 م.

– ماجد صالح السامرائي، بدر شاكر السياب شاعر عصر التجديد الشعري، ط1، لبنان . بيروت، 2012 م.

– مخائيل إمطانيوس، دراسات في الشعر العربي الحديث (وفق المنهج النقدي الديالكتيكي)، المكتبة العصرية، لبنان . بيروت، ط1، 1968 م.

– نبيلة الرزاز اللجمي، بدر شاكر السياب حياته وشعره، (د.ط)، منشورات مكتبة أطلس، لم تذكر بلد النشر، 2000 م.

– يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث (بحوث ومقالات)، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر . القاهرة، 1973 م.

Sources and references

(The Holy Quran.)

−.Emilio Gharcia Gomth, with the poets of Andalusia and Al-Mutanabbi (biographies and studies), 2nd edition, tr. Al-Taher Ahmed Makki, Dar Al-Maarif, Egypt - Cairo, Dr. T.

−.Badr Shaker Al-Sayyab, Al-Diwan, Volume 1, Beirut, Dar Al-Awda, 3rd edition, 1971 AD

−.Shihab al-Din al-Nuwayri, The End of the Lord in the Arts of Literature, 1st Edition, National Books and Documents House, Egypt - Cairo, 2002 −Shawqi .Dhaif, Art and Its Doctrines in Arabic Poetry, 1st Edition, Dar Al-Ma'arif, Egypt - Cairo, 1987 AD

−.Obaid bin Al-Abras, Al-Diwan, explained by Ashraf Ahmed Adra, 1st edition, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Lebanon - Beirut, 1994

−.Ghazi Tulaimat, and Irfan Al-Ashqar, pre-Islamic literature (its issues, its purposes, its flags, its arts), 1st edition, Dar Al-Irshad, Syria - Homs, d.t

.Imru' al-Qais, al-Diwan, ed. Muhammad Ali Beydoun, 5th edition, Dar Al-Kutub Al-Alami, Lebanon - Beirut, 2004 AD.

−.Majid Salih al-Samarrai, Badr Shaker al-Sayyab, poet of the era of poetic renewal, 1st edition, Lebanon - Beirut, 2012 AD

−.Mikhael Imtanios, Studies in Modern Arabic Poetry (According to the Dialectical Critical Approach), Modern Library, Lebanon - Beirut, 1st edition, 1968 AD.

−.Nabila Al-Razzaz Al-Lajmi, Badr Shaker Al-Sayyab, his life and poetry, (Dr. I), Atlas Library Publications, did not mention the country of publication, 2000 AD.

−.Youssef Ezz El-Din, In Modern Arabic Literature (Research and Articles), 1st Edition, The Egyptian General Book Organization, Egypt - Cairo, 1973 AD.